فدريجو والصقر

للأستاذ عبد الرزاق حمزة

منشىء هذه القصة هو جيوفانى بوكاشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) تلميذ بترارك وأحد زعماء نهضة إيطاليا فى القرون الوسطى. كان بوكاشيو شاعرا أديبا وقصصيا مبدعا. وقد ترك مجموعة من القصص خالدة فى كتابه « ديكمرون » الذى يعتبر تاجا على رأس القصص النثرى فى القرون الوسطى وقد أفاد منه كثير من زعماء الآداب الأوربية الحديثة، وبخاصة فى انجلترا أمثال تشوسر، ودريدن.

وفى القصة المسطورة بعد نرى شبحا لقصة عربية تروى فى كتب الأدب عندنا عن كرم حاتم. وهى أن قيصر الروم سمع بكرمه فأرسل إليه رسولا يسأله فرسا من كرام الخيل كانت عنده. فلما جاءه الرسول. ولم يجد عنده مايحييه به عمد إلى تلك الفرس فذبحها. فلما طلبها الرسول أسف حاتم أشد الأسف. وأخبره بما كان. فعجب من أمره وآمن أن ماسمعه عن حاتم أقل مما رأى منه.

ومما لاشك فيه أن النهضة الإيطالية فى القرون الوسطى قد استفادت من العرب وأن الأندلس والحروب الصليبية كانتا سبب هذه الاستفادة ومكانها ولامانع من أن يكون بوكاشيو ؤلف هذه القصة قد استفادمن القصة العربية ولو فى أصل الفكرة، على أن بوكاشيو كان شخصية نادرة، وكان ذكيا موهوبا قادرا على هضم كل مايعرف، وإعادته مطبوعا بطابعه الخاص فانشاهذه القصة وكأنها شيء جديد لم يسبق إليه. ولا شبه بينها وبين القصة العربية إلا فى

الكرم ، والجود بأعز ماعند البطل فى القصتين . فقد تكرم حاتم بفرسه ، وتكرم فدريجو بطائره . وقد كانا أعز شىء عندهما .

على أن هناك تعليلا آخر لهذه القصة التالية ، هو أن بوكاشيو كان يريد أن يبين نوعا من العفاف لا يعبأ بشىء ، ولا يأبه لشىء . وأن يظهر نوعا من الشرف فى بطلة القصة جعلها وفية لزوجها ، مخلصة له ، فلما دفعتها الضرورة والحب لابنها لم تنزل عن كبريائها ولاعن نبل أخلاقها . فلما ألحت عليها الضرورة نزلت على حكمها محتفظة بشرفها ، فتزوجت بمن أحبها بعد وفاة زوجها وابنها ، وعاشت معه عيشة زوجية سعيدة .

وفيما يلى هذه القصة :

كان فدريجو بن فيليبو شابا من أهالى مدينة فلورنسا ، وكان فارسا نبيلا لامثيل له فى مقاطعة توسكان بإيطاليا . وكان يحب سيدة تدعى «موناجيوفانى» من ألطف سيدات تلك المدينة — فلورنسا — وكان دائم التودد إليها ، يقيم من أجلها الاستقبالات الفخمة والحفلات الساهرة . وحلقات المبارزة ، كى يكسب عطفها ، ويفوز برضاها . وكان يسرف فى الإنفاق على كل مايظنه مؤديا إلى رضاها ، أو محببا إلى نفسها . ولكن « مونا » كانت نقية عفيفة ، كما كانت جميلة لطيفة ، فلم تعبأ بشىء مما كان يفعله من أجلها .

وظل فدريجو يعيش هذا النحو من العيش : ينفق بسخاء . ويسرف فى الإنفاق ، ولا يظفر من محبوبته بشىء ، فضاعت ثروته سريعا ، ولم يبق عنده إلا مزرعة صغيرة جدا . وريعها قليل جدا .

واحتفظ من أيام غناه بصقر من أحسن أنواع الصقور فى العالم . ولما وجد ثروته لاتساعده على الإقامة فى المدينة كما يحب أن يقيم ، اعتزلها ، واستقر فى مزرعته ، مقيما على حبه ووفائه . وكان يخرج للصيد بصقره كلما سمح الجو

وقد احتمل نكبته وفراق محبوبته صابرا ، واجتهد أن يخفى فاقته عن الناس أجمعين .

حدث بعد ذلك أن مرض زوج السيدة « مونا » . وكان غنيا جدا ، فأوصى لابنه بثروته ، وكان ابنه وحيدا قد بلغ مبلغ الرجال . ثم أوصى لزوجته بهذه الثروة من بعد ابنه إذا مات الابن بلا عقب . ومات الزوج فى مرضه هذا ، وأصبحت زوجته من بعده أيما . فاعتزلت المدينة إلى الريف ، وكان منزلها فيه قريبا من مزرعة فدريجو . فاتصل ابنها به ، وقويت الصلة سريعا ، وكثيرا ما كانا يخرجان معا إلى الصيد بالكلاب والصقور . ورأى الابن صقر فدريجو فأعجب به جدا وتمنى فى نفسه أن يكون ملكا له . ولكنه كان يعرف مقدار حب فدريجو لصقره ، وفكر فى طريقة يطلب بها الصقر من صاحبه . أو يحمله على أن يهبه له فلم يهتد إلى طريقة .

ومرض الابن من أجل ذلك ، فشغلت أمه بأمره جدا إذ كان وحيدها . وانصرفت إلى خدمته ، والعمل على راحته . وكانت ترجوه دائما أن يخبرها بكل ما تشتهى نفسه ، وتعده أن تبذل كل جهدها فى إجابة طلبه ، وأن تجيئه بكل ما يود ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ؛ عسى أن يبرئه ذلك من مرضه .

فلما سمع ذلك مرارا من أمه قال لها :

« ياسيدتى ، إذا وجدت حيلة تحصل بها على صقر فدريجو برئت حالا »

تحيرت الأم عندما سمعت هذا ، وشرعت تفكر فى أحسن وسيلة تتخذها وكانت تعرف أن فدريجو قد أحبها من زمان بعيد . وأنها لم تبد من جانبها أى تشجيع له . فكيف ترسل أو تذهب فى طلب هذا الصقر ، وهو كما سمعت من أحسن أنواع الصقور فى العالم ، وهو كذلك كل ما بقى لصاحبه من هذه الحياة ، وكيف ترضى أن تحرم رجلا من هذا السرور الوحيد الذى بقى له فى الدنيا ؟

إنها كانت واثقة من الظفر بحاجتها عند أقل إشارة منها، ولكن الحيرة شغلتها حينا فحبست لسانها عن الجواب. ثم غلبها الحب المكين لابنها، فأفاقت من هذه الحيرة وقررت أن تذهب إلى فدريجو مهما احتملت من عناء نفسي. ثم أجابت ابنها:

يابني، طب نفساً، ولا تفكر إلا فى استرداد عافيتك، وأعدك أن أذهب غدا من أجل الصقر، وسيكون ذلك أول ما أفعل فى الصباح». وكان سروره بذلك عظيما جدا، حتى بدت عليه علامات الشفاء عندما سمع من أمه ذلك الجواب.

***

ذهبت «مونا جيوفانى» فى صباح اليوم التالى ماشية إلى منزل فدريجو ومعها سيدة أخرى. وكان الوقت مبكرا، وفدريجو لم يخرج إلى الصيد بعد، بل كان يشتغل فى حديقة منزله الصغير هو وبستانى. فما إن سمع صوت السيدة التى يحبها على باب منزله تسأل عنه حتى جرى إلى الباب مدهوشا، والسرور يملأ جوانحه. أما هى فتقدمت للقائه مع كثير من المجاملة. وبعد التحيات المعتادة قالت:

«صباح الخير أيها السيد. إنى قادمة لأعوضك بعض الخسائر التى تحملتها فى سبيلى. وقد أحضرت معى صاحبتى لتتغدى عندك اليوم». فأجاب فدريجو بشىء كثير من التواضع.

سيدتى، لا أذكر أبدا أنى لاقيت بسببك خسارة ما. بل أذكر أنى لقيت كل خير، وإذا كنت أهلا لخير فى أى زمن فذلك راجع إلى قدرك العالى، وإلى الحب العظيم الذى أكنه لك. وأؤكد أن هذه الزيارة المؤنسة أحب إلى من عودة كل ما أنفقت، وهو لو عاد لأنفقته ثانيا. ولكنك جئت إلى منزل فقير، وهذا هو ما يؤسفنى.

ثم أدخلها المنزل هى وصاحبتها . وقد تغير لونه . ثم ذهبوا جميعاً إلى الحديقة حيث كان يعمل . ولم يكن عنده سيدة تلقاها وتحييها فقال لها وهو يشير إلى امرأة البستانى :

« يا سيدتى ، إنى أقيم وحدى فى هذا المنزل ، فتفضلى بقبول هذه السيدة الشريفة ، تؤنسك حتى أعد المائدة » .

لم يكن فدريجو — على الرغم من فقره الشديد — قد أحس بعد بإسرافه القديم . ولكنه لما لم يجد شيئا يقدمه لهذه السيدة — مونا جيوفانى — وهى التى أنفق من أجلها آلافا — تحير أشد الحيرة . ولعن الحظ البائس . وأصبح كالمذهول يصعد وينزل ، ويروح ويجىء . وهو لا يدرى لم يفعل ذلك . ولم يكن معه درهم ولا مليم . ولا يحب أن يشعر أحد بما هو فيه من بؤس حتى صديقه البستانى ، وكانت رغبته شديدة فى أن يقدم لها شيئا يليق بمقامها . وأخيرا وقع نظره على الصقر جاثما على وتد . فأخذه فوجده سمينا ، ورآه يصلح طعاما مناسبا لمثل هذه السيدة النبيلة . فذبحه وأعطاه بنتا تنظفه بعناية وتشويه . أما هو فأخذ يعد المائدة ، ووضع عليها غطاء مما كان باقيا عنده من أيام الرخاء .

عاد إلى السيدة بعد أن أعد المائدة والغداء . وعلى محياه إشراق وابتسام ودعاها أن تتفضل فتدخل للغداء وهى وصاحبتها ، فدخلتا ، وجلسوا جميعا إلى المائدة . وشغل نفسه بخدمتها بينما كانت تتناول الغداء هى وصاحبتها ولا تعرفان أى طير تأكلان . ولما انتهى الطعام جلسوا يتحدثون فرأت « مونا » أن الوقت مناسب لتخبره بما جاءت من أجله ، وخاطبته بكل بشاشة وأنس قائلة :

« أيها السيد ، إذا ذكرت حياتك الماضية ، وموقفى منك ، وربما اعتبرته قسوة — فلا أشك فى أنك تعجب من جرأتى عند ما تعرف ما جئت من أجله

ولكنك لو كنت أبا ولك أولاد وعرفت مقدار حبنا لأولادنا لالتمست لى عذرا بكل تأكيد . إن كونى أما يضطرنى على الرغم من ميولى وعلى الرغم من كل عذر . أن أسألك شيئا أعلم أنك تقدره جدا لأنك لم يبق لك غيره تسلية أو راحة فى هذه الظروف العصيبة التى تحيط بك : وأعنى به الصقر الذى عندك . إن ابنى قد جن به جنونا وإذا لم أعد إليه به خشيت على نفسه من التلف وخفت أن يقتله الحزن ؛ لهذا أرجوك — لا من أجل احترامك لى ، فليس هناك ما يحملك على هذا ، ولكن من أجل ما أعرفه عنك من كرم — أن تتفضل فتهب لنا هذا الصقر حتى أستطيع أن أتحدث دائما بانك أنقذت لى حياة ابنى ونعيش أنا وهو مدينين لك .

فلما سمع « فدريجو » طلب السيدة مونا وعلم أنه ليس فى استطاعته أن يجيبها إليه أخذ يبكى قبل أن يرد جوابا وظنت السيدة « مونا » أول الأمر أن سبب ذلك هو كراهته لفراق طائره العزيز وتوقعت منه الرفض الصريح ثم تمهلت قليلا فاجابها :

« أيتها السيدة العزيزة » إن الحظ لا يسعدنى أبدا معك منذ أن أحببتك وإن ما أشعر به الآن شديد جدا على نفسى . إنك هنا لزيارتى فى مسكنى الحقير الذى لم يكن يتوقع أن تتنازلى بالمجىء إليه فى أيام عزى ورخائى وقد طلبت منى هدية صغيرة وليس فى قدرتى أن أهبها وإليك قصتها باختصار :

إنى عند ما علمت بالشرف العظيم الذى خلعته على وهو شرف الزيارة ، رأيت من الواجب أن أقدم إليك خير ما أستطيع وأن أقدم شيئا أحسن مما يقدم عادة إلى الآخرين وتذكرت الصقر الذى تطلبينه الآن وطيب معدنه ورأيته مناسبا لمقامك وقد شويته لك ولم أحسب أنه يمكن أن يقدم إليك بطريقة أخرى وهذا يحزننى كل الحزن ولن يهدأ لى بال ما حييت .

ثم أراها ريش الطائر ورجليه ومخالبه فأخذت تلومه على ذبح مثل هذا

الطائر من أجل أى ضيف . ولكنها فى نفسها قدرته وأجلت منزلته ثم استأذنت منه .

* * *

عادت مونا إلى ابنها وقد ضاع أملها فى الصقر واشتد الحزن بالولد من أجل أمله الضائع فقضى عليه . وحزنت الأم عليه زمنا . ولكنها كانت غنية وصبية جميلة فألح عليها إخوتها أن تتزوج ثانيا . ولكنها رفضت أولا فلما طال إلحاحهم تذكرت فدريجو وذبح الصقر من أجلها فقالت لهم :

إنى أفضل أن أبقى أرملة ولكن بما أن رغبتكم شديدة فى أن أتزوج فلن يكون لى زوج إلا فدريجو .

وسخر إخوتها منها وقالوا انك امرأة ساذجة . إن فدريجو لا يساوى شيئا فى هذه الدنيا . فأجابتهم :

لعله كما تقولون . ولكن لن أتزوج غيره . فلما سمعوا قرارها وهم يعرفون طباع فدريجو وكرم نفسه زوجوها منه . وأعطوه ثروتها . أما هو فقد أحسن تدبير أموالها . وكان لها خير زوج . وعاشا سعيدين .

عبد الرزاق حمزة